مخطوطة ترانيم تقديم الشكر بين مخطوطات البحر الميت

تعتبر لفافة ترانيم أو تراتيل تقديم الشكر من أهم مخطوطات مجتمع قمران لأن الترانيل والترانيم فى تقاليد هذه الجماعة تسبق عندهم بالضرورة دراسة الأفكار والعقائد الدينية؛ ويرى الثقاة أنها وثيقة لا تقدر بثمن للبحوث المقارنة بين عقائد هذه الجماعة وخلفية الديانة المسيحية؛ وعلى سبيل المثال فقط فإن هذه اللفافة تتضمن عقيدة الثنوية، الجبرية (القضاء والقدر)، الخلاص من خلال الاختيار والخلود. ويبدو أن مجموعة الترانيم التى تضمها هذه اللفافة هى من تأليف ووضع مؤلف واحد فرد تنعكس خبرته ومشاعره الحية الفياضة على هذه الترانيم.

وكما ألمعت مرارا من قبل تم اكتشاف مخطوطة تراتيل أو ترانيم تقديم الشكر فى الكهف رقم واحد من كهوف البحر الميت فى قمران سنة ١٩٤٧ ضمن المخطوطات السبع التى وجدت هناك، كما عثر على بعض قطع منها وإن كانت صغيرة سنة ١٩٤٩. وفى صيف ١٩٥٢ ثم اكتشاف خمس قطع إضافية أخرى من هذه اللفافة إحداها على بردى ضمن اكتشافات الكهف رقم ٤. وتسد هذه القطع فى بعض النقاط الفجوات الموجودة فى الترانيم. وثمة أربع أو خمس قطع مخطوطة خرجت من بطن كهف ٤ تضم مزامير شبيهة بتلك الموجودة فى هذه الوثيقة ولكنها يقينا ليست ضمنها ولكننا لا نعرف إن كانت تنتمى إلى تلك المجموعة أم لا.

وتقع هذه الترانيم أو التراتيل فى قسمين: حزمتان لا ملامح معينة لهما. الجزء الأول به ثلاثة أفرخ أو دروج منفصلة مطوية ولكن ليست ملفوفة. وكل درج (فرخ) يضم أربعة أعمدة من النص ويبلغ طول الدرج (الفرخ) ١٣ بوصة وعدد السطور فى كل عمود ٤٠ سطرًا ، وهذه الأعمدة تتساوى فى العرض والكتابة من

نفس الحجم وتشبه تلك الموجودة فى لفافة عيسياه الكاملة. والجزء الثانى عندما اكتشف كان عبارة عن كومة مجعدة من نحو سبعين قطعة من الصعب فضها وفردها. والجانب الاكبر من هذه الرقوق بنى غامق إلى حد كبير، لدرجة أن بعض القطع أسودت بفعل الزمن. وبفضل الأشعة تحت الحمراء أصبحت القطع سهلة القراءة.

والنص على إجماله فى حالة سيئة من الحفظ وهناك خروم وثغرات تعترض السياق ليس فقط فى الأجزاء العليا والسفلى وإنما أيضًا فى وسط الأعمدة.. وفى بعض الأعمدة لا نجد إلا الجزء الأيمن أو الجزء الأيسر فقط. ومن هنا لم تتح الفرصة إلا لنشر ١٨ لوحة فقط كل منها بها ما بين ٢٠ – ٤٠ سطرا؛ وإلى جانب ذلك تم نشر ست لوحات تتضمن ستا وستين قطعة من الترانيل ومعظم هذه القطع فى حالة سيئة للغاية. وفى حالات قليلة فقط تساعد هذه القطع فى سد فجوات فى النصوص السليمة.

ومع الفحص الباليوجرافى يمكننا القول مطمئنين أنه توفر على نسخ هذه المخطوطة ناسخان على الأقل. فالأعمدة الموجودة فى الحزمة الأولى كتبت بعناية من جانب ناسخ ماهر حاذق يشبه خطه ذلك الخط الموجود فى "دليل النظام" و "شرح حبقوق" والناسخ الثانى يبدأ من السطر ٢٢ من اللوحة الحادية عشر من منتصف الترنيمة وكتابة هذا الناسخ يتضح فيها الاهمال وانطوت على عدة أخطاء. وعلى وجه الإجمال هناك من ٣٠ إلى ٣٢ ترنيمة فى الأعمدة من ١ – ١٨ بصرف النظر عن القطع. والعنوان العبرى هو (هودايوت) الذى ترجمته إلى العربية هو "ترانيم تقديم الشكر" وهو من وضع البروفيسور إ.ل. سوكنيك من الجامعة العبرية. وقد لقى هذا العنوان قبولاً عامًا من قبل الباحثين وذلك لسببين: أن كثيرا من الترانيم تبدأ بالصيغة الموحدة "أشكرك يا رب لأنك... "؛ وأن افتتاحية كل ترنيمة يتبعها ذكر فضل أو أفضال الله على المؤلف يمتن لها ويشكر عليها.

ويرى المحللون اللغويون أن أسلوب هذه الترانيم الابتهالات تشبه الأسلوب الشعرى الموجود فى عبرية الكتاب المقدس وخاصة ذلك الموجود فى سفر المزامير.

وهناك اقتباسات مباشرة فى هذه الترانيم من تعبيرات وحكم وأمثال عبرية الكتاب المقدس. وفى بعض مواضع النص، يشبه النص قطعة فسيفساء من جمل الكتاب المقدس وخاصة الأسفار الأخيرة من الكتاب المقدس. والتوازى مع نص الكتاب المقدس واضح ولكن ليس بدرجة كبيرة، وليس هناك وزن شعرى منتظم فى التراتيل ولكن توجد تشكيلة كبيرة من الأوزان الشعرية فى المجموعة ككل.

وما زال الجدل دائرًا مستمرا حول مؤلف هذه المخطوطة ففى أحيان كثيرة نشعر بأن هذه الترانيم من تأليف شخص واحد وحيث تعكس هذه الترانيم تجربته ومشاعره الشخصية. وربما كان الضمير " أنا " فى الترانيم يعنى المؤلف نفسه وقد يكون هو "معلم الاستقامة" المذكور كثيرا فى المخطوطات السابقة. ويرى البعض أن المؤلف ليس هو (معلم الاستقامة) لأنه لم يذكر ولا مرة واحدة داخل الترانيم. ومن الجدير بالذكر أن هناك فقرات بيوجرافية تدل على أن مؤلف العمل كله شخص واحد.

ويمكننا تلخيص محتويات هذه الابتهالات الترانيم التراتيل فى النقاط الآتية:

١- يصف المؤلف معاناته ومعاناة شعبه واضطهادهم على يد أعداء الطائفة.

٢- يشكر المؤلف الله ويحمده ويثنى عليه لتخليصه وشعبه من العدو والأشرار الآخرين الذين يحيطون به وبشعبه.

٣- وقد أسفرت الدراسة المتأنية الواعية لهذه المخطوطة عن الاعتقاد بأن تاريخ هذه الوثيقة يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد.

٤- ويكشف تكرار بعض الجمل والتعابير بين ثنايا الترانيم كما يكشف ترديد أفكار بعينها على مدى النص عن العقائد اللاهونية للطائفة وهى عقائد راسخة شاملة تصورها الحقائق الراسخة لديهم ومن بينها:

٥- أن الله هو خالق الكون وسننه مطلقة؛ والله هو خالق الإنسان أيضًا.

٦- أن الله هو "إله المعرفة" ولقد رأى كل أفعال البشر وقد استخدم علمه المسبق هذا فى وضع خطته المسبقة للكون وهى خطة غير قابلة للتغيير ومعرفة الله المسبقة وسلطانه يحيط بكل شيء يحدث فى هذا الكون.

٧- ولقد قدر الله لكل أمرئ قدره منذ الميلاد إن شرًا وإن خيرًا؛ وإن هلاكًا وإن خلاصًا. ولقد حدد مصير خلائقه قبل الخلق.

٨- وإن الاعتقاد فى القدر المسبق الإلهى والمعرفة المسبقة ليرتبط ارتباطا وثيقًا مع الثنوية ومن ثم يقسم البشر بالضرورة إلى الفريقين: الأشرار والأخيار.

٩- والإنسان كمخلوق فإنه سهل الانقياد ويغرق فى الرذيلة، والخطيئة وهو يعتمد على الله اعتمادًا مطلقًا وهو يخرج منها فقط بسلطان الله ورحمته غير المشروطة.

١٠- وخلاص الإنسان يمكن بلوغه ليس من خلال أفعال الإنسان الصالحة والاستقامة ولكن من خلال الإيمان ورحمة الله. وهو لا يتكون فقط من التسليم بالكوارث. (القضاء والقدر) ولكن أيضا من خلال التخلص من الخطيئة نفسها.

١١- والخلاص لا يتأتى فقط من المغفرة والتسامح والتطهر من الخطيئة ولكن أيضًا من الاشتراك فى صحبة إلهية دينية.

١٢- لقد خلق الأشرار الأوغاد حتى يمكن من خلالهم استعراض قدرة الله على البطش والإهلاك.

١٣- إن روح الله تبث فى هؤلاء الأخيار برحمة من الله؛ وبهذه الروح يهتدى الأخيار.

١٤- إن نعمة المعرفة تعنى بالنسبة لأعضاء الطائفة الخلاص الحقيقى والذى لا يستطيع أى شخص خارج المجموعة أن يتشاطره؛ فقط هؤلاء الذين اختارهم الله لحمل عهده وميثاقه هم القادرون وحدهم على تحصيل تلك المعرفة الإلهية.

١٥- يعتقد مؤلف الترانيم أنه هو وشعبه يعيشون مرحلة انتقالية محكومة بالمعركة الحاسمة بين الخير والشر فى "نهاية الأيام". وإن مستقبلهم ليكمن فى الصحبة مع الملائكة والأرواح السماوية للمعرفة والحقيقة.

١٦ - والله سبحانه تحيط به ملائكته، وأعضاء الطائفة يتطلعون إلى تسبيحه تسبيحًا مطلقًا فى جمعهم. وهناك طائفتان من الملائكة: الأخيار والأشرار. والملائكة الأخيار يسمون (أبناء السماء)، (أبطال السماء)، (ضائفو السماء)، (روح المعرفة) أما الملائكة الأشرار فإنه يطلق عليهم (أمراء الظلام، (ملائكة العداوة والبغضاء)، (الملاك الساقط). وملائكة الشر لهم سلطان على أبناء الشر والخطيئة.

١٧ - وهناك تعبيرات عديدة فى الترانيم تشير إشارات واضحة إلى البعث والنشور. وإن كان هناك بعض الباحثين يشعر أن الطائفة لم تركز على هذه النقطة كثيرًا.

١٨ - إن من إحدى النقاط المتكررة فى الترانيم تلك التى تشير إلى مثول الخيرين بين يدى الله سبحانه جل جلاله وجمع من الملائكة.

١٩ - ليست هناك إشارات واضحة إلى المسيح فى هذه الترانيم. وإن كان بعض الدارسين قد فهم وجود إشارة إلى المسيح فى العمود ٣، السطور ١ - ١٨ كترنيمة مسيحية. إلا أن هذه الترنيمة تحتوى وصفًا لامرأة تلد طفلاً ذكرًا يهدى البشرية. وتفسير هذه الترنيمة ما يزال غامضًا ولا يمكن النظر إليها على أنها إشارة واضحة إلى السيد المسيح.

* * *